عبد الله أبو سنينة

# هامش

قصة قصيرة

عبد الله أبو سنينة

# هامش

"عدد الأطفال الذين قتلوا في الحرب المستمرة على قطاع غزة يفوق عدد الأطفال الذين قتلوا على مدى أربعة أعوام من النزاعات في العالم."

**- فيليب لازاريني، المفوض العام للأونروا**

أطيل بعنقي خارج الخيمة أتفقد حالة الطقس فأراه غائمًا مع فرصة لسقوط الصواريخ.

ليس الوضع الأنسب للعب كرة القدم مع أصدقائي، لكن لا يبدو أن الحالة ستتحسن قريبًا. أنظر تجاه أمي فأراها على هاتفها. ألتقط كرة الميكاسا وأهم بالخروج من الخيمة إلّا أنها انتبهت لي فأوقفتني متساءلة، "إلى أين أنت ذاهب مع الكرة؟"

لا أرغب باختلاق كذبة فأجيب بصدق، "سنحاول إيجاد مكان للعب كرة القدم. الساحة التي كنا نلعب بها الأيام الماضية تحولت إلى مقبرة."

تميل والدتي رأسها مستغربة إجابتي وتقول، "ربما لهذا السبب من الأفضل ألّا تخرج. هل تريد حقًا لعب كرة القدم في هكذا وضع خطر؟"

أهز كتفي لا أحير إجابة مقنعة، ربما لأنه لا يوجد هناك واحدة.

تكمل والدتي، "لا نزال نستطيع شم رائحة الحريق في الخيام التي تبعد قليلًا بعد مجزرة أمس. الوضع خطر جدًا!"

"ها أنت قلتها... الحريق في الخيام. هذا يعني أنني سأكون أكثر أمنًا في الخارج!"

أقول هذا وأنا مقتنع أنه غير صحيح؛ فهنا لا يوجد مكان آمن، حتى تلك الأماكن التي وصفت بأنها مناطق آمنة، لكن أرغب حقًا بلعب كرة القدم للتخفيف قليلًا من وطأة هذا الحال.

تدير والدتي رأسها حول الخيمة الصغيرة كأنها تبحث عن والدي يساندها كما كان يفعل سابقًا في منزلنا، لكن الآن لا وجود للمنزل ولا لأبي.

تنظر إليّ مجددًا وتقول، "هذه ليست مناظرة بيننا. أنت ابني الأصغر وأخاف عليك!"

"لم أعد ابنك الأصغر!" أقول لها بنبرة جادة. تنظر إليّ تنتظر تفسيرًا. أكمل، "الآن أنا ابنك الأكبر. ابنك الوحيد. لم يتبق أحد. لا أخي ولا شهاداته المدرسية، ولا أبي ولا مكتبته، ولا روايته التي لم يكمل كتابتها. أخي وأبي وعدة أقارب وجيران، كشخصيات الرواية التي كان يكتبها والدي، ذهبوا دون أن تكتمل قصصهم. لم يبق منهم سوى بعض الذكريات، ومنها هذه."

أشير إلى الكرة والتي كان أهداني إياها والدي قبل شهور. أكمل، "لهذا أرغب بلعب كرة القدم أكثر من ذي قبل؛ لأن الكرة تذكرني بالقليل من الحياة التي كانت لدينا. ألعب وأنا أتضور جوعًا، لكنني جائع لحياة شبه طبيعية أكثر من توقي لأي طعام."

تشيح والدتي بنظرها قليلًا، ربما لإخفاء ملامح وجهها، أو أنها لا تريد أن أراها تبكي. لا أتوقف عن الحديث، ولا أتحدث معها بالقدر الذي أتحدث فيه مع نفسي بصوت عال. أقول، "يخبروننا بأننا كنا محظوظين لأننا كنا خارج البيت عندما تم قصفه. لا. هذا ليس حظًا. لو كنا محظوظين لما كنا هنا الآن!"

أدير ظهري وأخرج من الخيمة، التي لن أصفها أبدًا بأنها خيمتنا.

***

أتجه للخيمة التي تنزح فيها عائلة أسيد لنذهب أنا وإياه للبحث عن مكان نلعب فيه كرة القدم. أجده خارج الخيمة، ورغم أنه يدير ظهره لي غير أنني أميزه بسهولة؛ فساعة يده البرتقالية التي لا تفارق يده تميزه عن غيره.

"صباح الخير،" أبدأ حديثي معه، لا يزال يدير ظهره.

عند سماع صوتي ينظر تجاهي ويقول، "الخير؟"

أشير برأسي نحو الكرة فيقول لي، "هناك مكان جيد قرب الشاطئ. ليس مستويًا تمامًا، لكنه أفضل من لا شيء. أخبرني عنه صديق أخي."

"رحمه الله."

"رحمهم الله جميعًا."

يصمت أسيد قليلًا قبل أن ينبهني، "سيكون البقية بانتظارنا هناك، لكن احذر عند ركضك بالكرة؛ قد تسقط لأن أرضية الساحة غير مستوية."

"سنرى."

يهز أسيد رأسه ويبدأ المسير تجاه الملعب بنظرات وخطوات مترددة؛ فهو مثلي لا يزال يتعرف على ملامح المخيم.

***

بعد المشي لقرابة عشر دقائق نصل إلى منطقة شبه مستوية ترتفع قليلًا عن محيطها، وهناك أحجار موضوعة على طرفي المنطقة

المرتفعة لتحدد المرميين. ولا وجود لحاجز يحمي الكرة من الابتعاد عن ساحة الملعب بحالة تسديدها بعيدًا. بدت الساحة كسنام جمل نوعًا ما. وفي البعيد، أستطيع رؤية البحر وبعض الأشخاص على الشاطئ. ربما لو كان الطقس مشمسًا لكان هناك أشخاص أكثر.

نرى الأصدقاء على ساحة اللعب، بالإضافة إلى لاعبين لا أعرفهم. كان بعضهم يسدد بعض التسديدات بكرة صغيرة مثقوبة.

رآني أحدهم أقترب فصاح، "ها قد جاءت الكرة!"

ليكمل آخر، "وجاء الصاروخ!"

التفت اللاعبين الذين لا أعرفهم إلى السماء خائفين قبل أن يوضح لهم القائل وهو يشير تجاهي، "هو الصاروخ. وأسرع من الصاروخ. أراهنك أنه يستطيع الهروب من قذيفة لو سقطت عليه."

يضحك من يعرفني من اللاعبين على كلامه، ويقول أحدهم، "سيلعب معي."

يحتج الآخرون مطالبين بأن ألعب في فريقهم.

على كل حال، ننتهي من اختيار اللاعبين ونبدأ اللعب.

لا أرغب بالتسديد من بعيد خوفًا من أن تبتعد الكرة كثيرًا عن الملعب، ولهذا أحاول الاقتراب من المرمى وتسديد كرة دقيقة.

أسجل هدفين بهذه الطريقة. لحق حارس مرمى الفريق الخصم الكرة لجلبها فظهر العرق على جبينه.

بعدها بدقيقة أمر عن لاعبي الخصم جميعهم سوى الحارس قبل أن أسدد الكرة في المرمى هدفًا ثالثًا.

يرفض الحارس اللحاق بالكرة بحجة أنه متعب. أتابع الكرة تبتعد عن الملعب، وأنظر إلى الشبان على الشاطئ فأخاف أن يلتقطها أحدهم. أركض بنفسي خلف الكرة لجلبها، وما أن أصلها وأمسكها أسقط أرضًا على وجهي إلّا أنني لا أفلتها.

يصمّ صوت الانفجار أذني، وأشعر بحرارة النار تلفحني، فأدرك ما الذي حصل، بيد أنني لا أستطيع إدارة رأسي فورًا.

أسمع صراخ الناس تقترب من مصدر الانفجار فأقوم عن الأرض والتفت تجاههم لتفقد أصدقائي. لا أمشي سوى أمتار قليلة قبل أن أجد ذراعًا مقطوعة أمامي، وعليها ساعة يد برتقالية.

يجمع الطفل الصدف على الشاطئ، أما الآن أنا أجثو على ركبتي أحمل يد صديقي المقطوعة بيدي، بينما لا تزال الكرة تحت الأخرى.

لا أعرف أحدًا في عمري أسرع مني بالركض، لكن الآن قدماي تتسمران في الأرض. تنغرسان غرسًا.

ثوان ويقترب شاب مني. يشدني من كتفي يصيح بي بكلمات لا أنتبه لها. بعد ثوان أستطيع تمييزه بأنه صديق أخي يخبرني بأن أعود إلى أمي لأنها ستكون قلقة.

ألتفت تجاه الانفجار إذ به حوّل المنطقة التي كانت مرتفعة عن محيطها قبل دقائق إلى واد صغير.

يستمر صديق أخي بهز كتفي والطلب مني أن أعود إلى أمي. أهز رأسي موافقًا وأبدأ السير تجاه الخيمة ونظري يدور بكل الاتجاهات بحثًا عن كيس أضع يد أسيد فيه.

***

لا أجد أمي في الخيمة. أستغرب أنها خرجت تاركة كل شيء خلفها. للحظات أتمنى بأنني كنت مع من قُتل بالقذيفة؛ لأنه لا يبدو أنني أستطيع تحمل أكثر من هذا.

أفكر بوالدتي كيف تحملت فقدان زوجها وابنها وبيتها ورغم ذلك تواصل الاعتناء بي دون كلل. وكأنني استحضرها عندما أفكر بها؛ فها هي تدخل الخيمة وتحتضنني وتقول، "ظننتك قُتلت بالقصف بادئ الأمر إلى أن أخبروني أنك بخير!"

تتحدث والدتي ورأسها على كتفي، غير منتبهة إلى الكيس الذي أحمله. تكمل، "ظننت أنني لن أكون أمًا بعد اليوم. ظننت أنني فقدتك!"

"أمي،" أبدأ الحديث معها، لكنها لا تزال تحتضنني، أشعر بدمعها الدافئ يبلل كتفي. أقول لها، "آسف عمّا قلته صباحًا!"

"توقف!"

"لا. لم أقصد ما قلته عن أنني لست محظوظًا. أنا محظوظ لأن لدي والدة مثلك."

تضمني بقوة أكبر إلى صدرها فضغطت يدي على الكرة فألاحظ أنها مثقوبة. أكمل، "آسف، لكن يجب أن أخرج."

تبتعد عني قليلًا، لكنها لا تزال تمسك كتفي. تنظر إليّ بعينيها المدميتين تطلب تفسيرًا.

"أريد الاطمئنان على من تبقى من أصدقائي،" أجيب بهدوء.

تُنزل والدتي يديها عن كتفي وتهز رأسها متفهمة. تلاحظ أمي الكيس بيدي للمرة الأولى، لكنها لا تسأل عمًا فيه.

أرمي الكرة المثقوبة جانبًا وأخرج من الخيمة متجهًا لعائلة لأسيد.

***

أصل الخيمة التي تنزح عائلة أسيد فيها. أنادي عليهم فيخرج أخوه الصغير. أتردد بإعطائه الكيس لثوان، لكن أقول لنفسي بأنه سيعرف عاجلًا أم آجلًا. أغلق الكيس وأعطيه إياه وأطلب منه ألّا يفتحه وأن يعطيه لأمه أو أبيه. يوافق على طلبي ويدخل الخيمة، وأتجه أنا مبتعدًا للسؤال عمّن تبقى من أصدقائي.

بضع أمتار وأبدأ بسماع الصراخ والبكاء القادم من الخيمة خلفي.

كان يضع أسيد الساعة دومًا. ساعة تشير إلى الوقت، لكنه لم يمتلك الوقت نفسه. كان لديه الكثير من الأحلام، لكن ليس الوقت لتحقيقها. ربما هنا ليس لدينا الحق لنحلم مثل الآخرين. ربما لدينا الحق في الكوابيس فقط.

يسقط صاروخ آخر بعيدًا عني، لكنه قريب عن غيري. هذا الذي أشعر به الآن سيشعر به آخرون بعد ثوان، مثلما شعر به عشرات الآلاف من قبلنا.

كم من ألف يجب أن يموت قبل أن ينظر لنا العالم على أننا بشر مثلهم؟

أواصل السير بين الخيام وأنا أحاول تجنب أن يرتطم بي أحد من الراكضين تجاه الانفجار، أو هربًا من المكان.

انفجار آخر، لكنه أقرب قليلًا. أفكر بالعودة إلى والدتي. على الأقل سنموت معًا لو تم قصفنا. حينها سنجتمع مجددًا مع أخي وأبي. أتذكر الوقت الذي أمضاه أخي بدراسته دون أن يتخرج، وكم من

شهر انكب أبي على خلق شخصيات روايته قبل أن يتم قتلها بواسطة قذيفة دون أن تكتمل قصصهم، تمامًا كما حصل معه ومع أخي ومع غيرهما الكثير.

هل ستكون نهايتي مثلهم؟ نهاية دون نهاية...

أضحك عندما أتذكر الوقت الذي أمضيته أتمرن على كرة القدم كي أصبح لاعبًا عالميًا. أنفض الحلم عن رأسي؛ فأنا لا أريد أن أصبح عالميًا في عالم تخلى عنا.

الآن هذا عالمنا، حيث يقف الفقدان عند باب كل خيمة، ويتربص بنا الموت خلف كل منعطف قد يفاجئنا بأية لحظة. كل حلمي الآن أن يغادرنا القهر لفترة كي نرمم أرواحنا، لكن يا تر

*********

# متاح مجانًا كذلك...

**وشاح – عبد الله أبوسنينة**

**يحاول مدرّس صنع مستقبل أفضل لأطفال المخيمات رغم أشباح الماضي التي تطاردهم.**